على هامش مقال « الشباب الغفل »

من هو هذا الشاب الغفل؟

الثقافة المغربية

- العدد 15 - 19 جمادى التانية عام 1357 الموافق 16 غشت سنة 1938

بقلم ...[1]

حمل إلى البريد صبيحة اليوم رسالة، وما أن وقع بصري على طابع البريد وبه « سلا » حتى أوجست في نفسي خيفة فقلت: لقد وقع ما كنت أحذره. هذه لا شك إما رسالة من أهل سلا يهددونني ويسبونني فيها، وإما قصيدة من أديب سلا يهجوني بها. ففتحتها بعدما ترددت طويلا فألفيتها من صاحب « الثقافة » وهى مكتوبة بخط شرقي. فما استغربت ذلك. لأن واجب المهنة يقضي على الصحافي المغربي أن يكتب بخط زملائه الصحافيين المصريين! وما قرأتها إلا بعد تعب وجهد طويل، ولكن كل شيء في تقليد مصر رخيص! فعلمت لأول مرة في حياتي من ديباجة هذا الكتاب أنني أستاذ! إذ كل من يكتب عندنا في صحيفة يصبح أستاذا، كما أن كل من يحمل على كتفيه سلهاما يصبح فقيها! وأول ما استهل به صاحب « الثقافة » قوله إنه لا يود أن أبقى غفلا، فاستبشرت خيرا، وقلت إن صاحب « الثقافة » يريد أن يخرجني من زمرة الشباب الغفل المغضوب

[1] طلب من محرر مقال « من لغو الصيف » أن يجهر باسمه ففضل الاحتفاظ بالتوقيع الذي اختاره لرده على مقال « شباب غفل » وهو كما سبقت الإشارة إلى ذلك على هامش مقال الرد المذكور الأستاذ أحمد بناني.

عليه، رحمة بي أو جزاء لي على مقالاتي أو خوفا مني ... ولكن ما أتيت على آخر الرسالة حتى خابت الآمال، وعلمت أن صاحب « الثقافة » يريد ألا أبقى غفلا، أى مجهول الإسم ، لأن القراء ألحوا عليه في ذلك، وما من أحد إلا ويتساءل عن الشاب الغفل من هو.

لا يا صاحب « الثقافة » إنما هذه مكيدة منك، ووسيلة للانتقام مني، إذ لما رأيت أنني لذعت أديب سلا، واستهزأت شعراء الوزن والقوافي عندنا، أردت أن تقذف باسمي كالكرة بين أقدامهم ليشبعوني هجوا، وما أقدر شعرائنا على الهجو! وتبقى أنت على كثب تقول: ما أحلى الانتقام! فإن كنت ترى أن الانتقام حلو فالاستتار عندي أحلى وألذ وأسلم! وكيف لا يكون أسلم وقد بلغني أن أديب سلا جمع القوافي وشحذ سكينه، حتى إذا قيل له ها هو ذا الشاب الغفل الذي يخزك من وراء ستار شمر على ساعديه وقال: هيوا بهذا الجريء الوقوح إلى المجزرة، ومن يدري ربما سأقاد من المجزرة إلى « السفود » إلى ما لا أدري ... فليسكن روعه ولقلل من غروره، فلن أعلن اسمي؛ وإن عرفه يوما فسيعلم أنه معوج طويل لا تسعه قافية ولا يواتيه وزن؛ وخير له ألا يضيع الوقت في البحث عني، إذ لو بحث عن شيطانه الذي هجره لكان أولى له ثم أولى!

رفقا بنفسك يا أديب سلا ولا تنس أنك البادي بالشر والبادي - كما يقول المثل - أظلم ، إذ أنت الذي قلت إن شياطين الشعر تفر من الشباب الغفل؛ فيداك أوكتا وفوك نفخ!

قاتلك الله يا صاحب « الثقافة » حملت على الشباب الغفل المسكين وحملته كل عار ونقيصة، فلما قذف الغيظ بأحدهم فانبرى للدفاع وجرى على لسانه ما يقال وما لا يقال، فاختفى تحت اسم مستعار، قمت تطلب اشهار اسمه والتمثيل به!

كيف أعود لزيارة سلا إذا علم أهل سلا أنا الذي ما ذكرتهم إلا وذكرت ويلهم؟ لا ياصاحب « الثقافة » ما هى إلا دعابة مني! وقد أخطأ من ظن أنني أستخف بسلا، وإلا فسلا من أبهج المدن في عيني ومن أعز البقاع عندي، رغم أنك منها، إذ لي بها أصدقاء

أوفياء أحتفظ دائما بودهم وأتفانى في إخلاصهم، وكم أحن إلى سلا شوقا إليهم، فلا أشعر بنفسي إلا وأنا بسلا، وكم يحنون إلى فاس، فلا يشعرون بأنفسهم إلا وهم بها، ولولا أن فاسا عندي في المقام الأعلى وهى في نظري جنة الدنيالقلت إن سلا تكاد تكون فاسان مصغرة، ولكنه صغر الظرف واللطف والأناقة!

على أن الإخوان السلاويين لم يذهب بهم الغيظ إلى الحد الذي توهمه بعض القراء؛ فقد قال لي شاب غفل سلاوي زار فاسا أخيرا: إننا معشر الشباب المدرسي بسلا نحل كل شيء للشاب الغفل صاحب الرد؛ فليذكر سيدي ابن عاشر أو ما شاء، فكل شيء في سبيل الانتقام من صاحب « الثقافة » هوين مباح!

لا يا صاحب « الثقافة » دعني أبقى غفلا أعيش هنيئا مرتاحا في منزلي الوضيع المتلاشي، وإلا كيف المناص من الإدارة ... إدارة الآثار القديمة والفنون الجميلة؟ وأنا وقد اعترفت بأن شياطين الشعراء والأدباء تزور منزلي، وأن كتبي تتجلى فيها أرواح أصحابها فتقفز من الرفوف وتصير دواتا تتحرك؟ أتستطيع أن تحيرني منها إذا جعلت منزلي في زمام الأبنية الغريبة والأطلال البالية، فلا يسوغ بيعها أو ترميمها إلا بإذن خاص ومفاوضات إثر مفاوضات؟

وكيف بي إذا أردت بيع كتب من خزانتي، ولكثيرا ما اضطر لذلك؟ فكأني بالكتبي يقول لي إذا عرفني: ما للناس ولكتب مسحورة تتجلى فيها شياطين مؤلفيها فتقفز من الرفوف وتصيح وتتلاكم؟

ثم ما ذا يهم الناس من اسمي وأنا لم أكتب لأحصل على ثنائهم؟ بل ما كتبت إلا للقيام بواجب، والواجب لا شكر عليه، إذ نحن في قضاء الحق أعوان كما يقول المصريون، وأظن أنني قد قمت بهذا الواجب أحسن قيام، فصدفت المرمى، ورجعت بالغنيمة إذ في حملتك الأولى على الشباب الغفل جعلتهم كلهم في الحضيض الأسفل، ولم تستثن منهم ولو فردا واحدا، وفي جوابك صرت تعترف بأن « الذين يحملون فكرة تجديدية في العلم

أو الأدب أو الاقتصاد أو مظاهر الحياة يعدون بالآحاد » ! صرت تعترف بالآحاد؟ الحمد لله! هذه خطوة أولى مباركة نحو الاعتراف التام الشامل العام حملك عليها مقال واحد من شاب غفل ساخر! ولكن ... قد يدرك المرء بالسخرية ما لا يدركه بالمنطق الواضح والحجج الدامغة! ورحم الله الشيخ محمد المامون الشنجيطي الذي قال في كتابه « لحظات القلوب » : أهل فاس، في معانيهم قل باز! مع أنني لم أدل لك بجميع الحجج ولم أستقص لك جميع أعمال هذا الشباب، وقد كنت معدا لك، إذا تماديت في تحاملك، حجة دامغة لا يمكنك نكرانها مهما بلغ بك الجحود! إذ كيف يمكنك أن تنكر فضل « مدرسة جسوس » وما حصل عليه تلاميذها من النجاح الباهر في هذه السنة، وأنت الذي تشيد بذكرها في مجلتك وتعلن لها بشتى الإعلانات وأنواع الأشهار. ألا تعلم أنها عمل من أعمال شاب غفل؟ أيمكنك أن تنكر ذلك؟ ثم إذا كانت المدارس الحكومية التي يقوم بالتدريس بها الأساتذة الحائزون على الشهادات العالية كالعالمية واللسانس والدكتورة لا تخرج إلا الشباب الغفل، كما تدعي، فما عسى أن تخرج « مدرسة جسوس » وصاحبها إنما هو شاب غفل وجل أساتذتها من الشباب الغفل؟ هذه مشكلة ربما لم تفكر فيها عندما أثرت حملتك، ولكن لا شك أنك ستجد لها حلا إذ ليس ذلك على « همتك القعساء » بعزيز! عجبا! مقال واحد من شاب غفل كفى « لتصير مبالغاتك رمادا » ، ولو أني جلت بقلمي الوخاز جولات أخرى لما وسعك إلا أن تضع السلاح وتأتى خاضعا ملتمسا المعذرة من الشباب الغفل! ولكن يعز على أن أراك في هذا الموقف، وكفى الشباب الغفل ما ناله منك من الاعتراف، والعفو عند الاقتدار من شيم الأحرار.

لا يا صاحب « الثقافة » إني لا أريد أن أعيش إلا منكرا؛ فإن كانت لذتك في إثارة الحملات العنيفة والرمي بالقنبلات على حد تعبيرك، فلذتي أنا في الاستهزاء والسخرية، ولكل مزاجه وأسلوبه في هذه الحياة. دعني أسمع الناس يتحدثون بمحضري عن « الشاب الغفل » من هو، وتذهب بهم الاحتمالات والتأويلات والظنون إلى أبعد مدى. إن في

ذلك للذة لا يعرفها إلا الساخر مثلي، وإن طرافة الأشياء لا تأتي إلا بما يحوط بها من غموض وشك وإبهام.

هذا رأيي يا صاحب « الثقافة » أصارحك به؛ ولكن نظرا لاستعطافك واستهوائك وإلحاحك، وإرضاء لقراء « الثقافة » الأجلاء، فإني أتنازل عن إرادتي فأعلن عن اسمي ... اسمي ... لا يا صاحب « الثقافة » إني لا أشعر من نفسي « بالشجاعة الأدبية » الكافية للإعلان عن نفسي، دعني ما أنا إلا ...

... شاب غفل - فاس

كتب على هامش المقال:

إن كتاب « لحظات القلوب » من أغرب ما أخرجته المطابع العربية في هذا العصر. فإن أردت جولة بتازة أو فاس ومحادثة شيخ الموالة المعلوم الذي لا يصلي ولا يصوم، وإن شئت مؤانسة الشيخ علي زكي، ومغازلة مدام بلنصوار التي لا تزور ولا تزار، وغير ذلك من النكت الطريفة، فعليك بهذا الكتاب العجيب. ولما أنني لا أملك مخطوطا بخزانتي أخصه ببحث علمي حسب الموضة الجارية الآن عند بعض كتاب « الثقافة » فإني سأتكلم في مقال مقبل عن هذا الكتاب المطبوع وكل ينفق مما عنده. ولمؤلف كتاب « لحظات القلوب » رسالة مطبوعة سماها « الأسئلة الناضرة عن الدابة المنتظرة » . فإن كان ما ذكره هذا المؤلف صحيحا من أن الدابة المنتظرة في آخر الزمان هى الأطموبيل، فلا يبعد أن يكون الشباب الغفل هم الدجال إذ لا دابة بلا دجال.